المحاضرة الثانية

السنة :الرابعة

دكتورة :رائدة الدالي

/الأحد/ 22/3/2020

قصة حي ابن يقظان

نقد ابن طفيل للفلاسفة

أولاً: نقد ابن طفيل لفلسفة ابن الصائغ(ابن باجة)

نقل ابن طفيل رأي ابن باجة في نظريته (الاتصال) بأنه قد وصل إلى رتبة إذا فهم معناها"هي أجل من أن تنسب إلى الحياة الطبيعية، بل هي أحوال السعداء، خليقة بأن يقال لها أحوال إلهية يهبها الله سبحانه لمن يشاء من عباده".

ثم أشار ابن طفيل إلى أمرين:

1- أن هذه الرتبة التي وصلها ابن باجة" انتهى إليها بطريق العلم النظري والبحث الفكري.
2- يقرّ إن ابن طفيل بأن ابن باجة وصل إلى هذه الرتبة، لكنه يأخذ عليه أنه لم يتخطها.

الفرق بين الرتبة التي وصلها ابن باجة وبين الرتبة التي أشار إليها ابن طفيل:

1- تشترك الرتبتان في المعنى من حيث الانكشاف.
2- الرتبة التي أشار إليها ابن طفيل تغايرها بزيادة الوضوح.
3- تتم المشاهدة برتبة ابن طفيل بشيء يصفه ابن طفيل بأنه "أمر لا نسميه قوة إلا على المجاز، إذ لا نجد في الألفاظ الجمهورية ولا في الاصطلاحات الخاصة أسماء تدل على ذلك الشيء الذي يشاهد به ذلك النوع من المشاهدة.

ما هي هذه الحال التي حركت ابن طفيل لكتابة قصة حي ابن يقظان؟

يقول ابن طفيل: هذه الحال التي ذكرناها وحركنا سؤالك إلى ذوق منها، هي من جملة الأحوال التي نبه عليها الشيخ أبو علي. ثم يذكر نصاً لابن سينا من الجزء الأخير من كتاب الإشارات والتنبيهات النمط التاسع الذي يحمل عنوان مقامات العارفين. حيث يصف ابن سينا مقامات

العارفين وأراد أن يقول ما لايقال عن حال العارف الواصل، بعد أن ميز قبل ذلك الفرق بين الزاهد والعابد والعارف، ليكون هذا النص الذي اعتمده ابن طفيل عن أحوال العارف وترقيه من رتبة إلى رتبة إلى أن يصل إلى رتبة **"يغيب فيها عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط، وإن لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظة وهناك يكون الوصول".**

4- يأخذ ابن طفيل على ابن باجة أنه وقف عند هذه الرتبة "على سبيل الإدراك النظري المستخرج بالمقاييس العقلية، وتقديم المقدمات، وإنتاج النتائج"(أهل الدراية أي البرهان)

ولم يتخطاها إلى إلى تلك الرتبة التي تعجز الألفاظ عن تسميتها.رتبة (أهل الولاية أي العرفان).

ويمثل ابن طفيل مثال يبين فيه الفرق بين إدراك هذه الطائفة(أهل الولاية) وبين سواها(أهل الدراية). بمثال الأعمى والبصير فيقول:"تخيل حال من خلق مكفوف البصر، إلا أنه جيد الفطرة، قوي الحدس..نشأ في بلدة وأخذ يتعرف أشخاص الناس وأنواع الحيوان والجمادات وسكك المدينة وديارها وأسواقها...حتى صار يمشي في المدينة بغير دليل ويعرف كل من يلقاه بأول وهلة، وكان يعرف الألوان بشروح أسمائها، وبعد أن حصل على هذه الرتبة فتح بصره وحدثت له الرؤية البصرية فمشى في المدينة فلم يجد أمرا على خلاف ما كان يعتقده ولا أنكر من أمرها شيئا، وصادف الألوان على نحو صدّق الرسوم عنده غير أنه حدث له أمران عظيمان أحدهما تابع للآخر وهما:

1- رؤية الوضوح والانبلاج.
2- اللذة العظيمة

وهذا حال الناظرين الذين لم يصلوا طور الولاية. هي حالة الأعمى الأولى، والألوان التي في هذه الحال معلومة بشروح أسمائها هي التي قال عنها أبو بكر(ابن باجة) أنها أجل من أن تنسب إلى الحياة الطبيعية يهبها الله لمن شاء من عباده. وحال النظار الذين بلغوا طور الولاية هي الحالة الثانية. إذاً ابن باجة بنظر ابن طفيل لم يرق إلى طور الولاية.

والذي نعنيه بادراك أهل النظر ما يدركونه مما بعد الطبيعة مثل ما أدركه أبو بكر، ويشترط في هذا الإدراك أن يكون حقاً صحيحاً وأهل الولاية يعتنون بهذه الأشياء نفسها لكن مع زيادة وضوح وعظيم التذاذ".

والنتيجة: ينتصر ابن طفيل للطريقة العرفانية ويندد بقصور أهل النظر عن بلوغ هذه الغاية بطريقتهم البرهانية عند الوصول إلى لحظة الانبلاج الكبير و الالتذاذ العظيم.

5- نقد ابن طفيل ابن باجة لأنه انتقد أهل الولاية فأنكر عليهم هذا الالتذاذ وقال أنه للقوة الخيالية، ووعد بوصف ما يكون عليه حال السعداء. ويعتبر ابن طفيل أن ابن باجة لم يصف هذا الحال لأنه إن وصف تلك الحال اضطره إلى القول بأشياء فيها قدح عليه في سيرته في اشارة من ابن طفيل أن ابن باجة شغلته الدنيا و استكثار المال.

جاء نقد ابن باجة للصوفية في ثلاثة مواضع من كتبه ففي كتابه تدبير المتوحد جاء فيه:

" زعم الصوفية أن إدراك السعادة القصوى قد يكون بلا تعلم بل بالتفرغ وأن لا يخلو طرفة عين عن ذكر المطلق، وأنه متى فعل ذلك أجمعت القوى الثلاث(الحس المشترك، التخيل، الذكر) وأمكن ذلك، وذلك ظن. وهذه الغاية التي ظنوها لو أدركت لما كان منها مدينة ولبقيت أشرف أجزاء الإنسان(العقل) فضلاً لا عمل له وكان وجوده باطلاً".

وفي رسالة الوداع يرى ابن باجة أن:"الالتذاذ العظيم الذي يدعيه المتصوفة لأنفسهم عند مشاهدتهم الأمور الالهية هو محض ضرب من اللذة العلمية ليس إلا، وهي عينها اللذة التي يعرفها أهل التفلسف الذين وفي هذا الصنف كنت أنا وكنت أنت"(ابن الامام) وسائر أصحابنا.

وفي رسائل ابن باجة الالهية يقول:"وأما ادعاء الغزالي بأنه شاهد عند اعتزاله أموراً الهية والتذاذا عظيماً فهذه كلها ظنون وأشياء يقيمها مثالات الحق".

ثانياً: نقد فلسفة الفارابي:

يقول ابن طفيل أن أكثر ما وصل إلينا من كتب الفارابي كثيرة الشكوك. وتنحصر هذه الشكوك عند ابن طفيل في ثلاثة مسائل محورها "مسألة البقاء بعد الموت" وهي:

1- في كتاب الملة الفاضلة يقول الفارابي ببقاء النفوس الشريرة بعد الموت في آلام لا نهاية لها.
2- في كتاب السياسة المدنية يقول الفارابي بأن هذه النفوس منحلة وصائرة إلى العدم، وأن البقاء للنفوس الفاضلة الكاملة.
3- ثم وصف في شرح كتاب الأخلاق شيئاً عن السعادة الإنسانية وأنها تكون في هذه الحياة التي في هذه الدار. ثم ذكر كلاما بعد هذا وهذا معناه: "وكل ما يذكر غير هذا فهو هذيان وخرافات عجائز". وهنا يرى ابن طفيل أن الفارابي أيأس الناس من رحمة الله تعالى وجعل مصير الكل إلى العدم. ذلك أن ابن طفيل ينتقد الفارابي من خلال تصوره الديني التقليدي لمسألة البقاء بعد الموت كما جاءت بها الأديان السماوية بما فيها مسألة العقاب والثواب. إلا أن بعض الآراء والدراسات تذهب إلى أن الفارابي

عالج المسألة من وجهة نظر فلسفية. فالبقاء عند الفارابي ليس الخلود بالمعنى الديني وإنما البقاء في ذاكرة أهل المدينة.

نقد نظرية النبوة عند الفارابي:

من مآخذ ابن طفيل على الفارابي وانطلاقاً من موقف ابن طفيل في اتباع العقيدة الدينية القويمة يرفض ابن طفيل نظرية النبوة عند الفارابي ووصف الفارابي بسوء المعتقد عندما زعم أن النبوة هي للقوة الخيالية وتفضيله للفلسفة على النبوة.

ذلك أن الفارابي حاول أن يقدم تفسيرا عقليا للوحي فربط الوحي بالقوة المتخيلة التي تعقل الجزئيات والمحسوسات ومحاكيات المعقولات المفارقة (لا بذاتها) في حين أنه جعل الفلسفة في مرتبة أعلى عندما ربطها بالنفس الناطقة التي تعقل الكليات والمعقولات المفارقة. وهذا يؤدي إلى تفضيل الفلسفة على النبوة، ويجعل من الفيلسوف رتبة أعلى من رتبة النبي. كما أن هذه النظرية تجعل النبوة لأي إنسان. وهذا مما يخالف العقيدة حيث ينتفي القرار الالهي في اختيار النبي الموحى إليه.

يقول الفارابي:"لا يمتنع أن يكون الإنسان إذا بلغت قوته المتخيلة نهاية الكمال فيقبل من العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلية...ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراها فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الالهية فهذا هو أكمل المراتب التي يبلغها الإنسان بقوته المتخيلية".

ثالثاً: نقد ابن سينا:

1- أشار ابن طفيل إلى أن ابن سينا جرى على مذهب أرسطو في كتاب الشفاء لكنه صرح بأن الحق عنده غير ذلك، وأنه ألف الكتاب على مذهب المشائين، أما من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بكتاب "الفلسفة المشرقية".
2- يرى ابن طفيل أن من قرأ كتاب الشفاء لابن سينا وقرأ كتب أرسطو يجد أنها تتفق في أكثر الأمور إلا أن في كتاب الشفاء أشياء لم تبلغ إلينا عن أرسطو.
3- إذا أخذ بكتب أرسطو وكتاب الشفاء على ظاهره ولم يتفطن لسره وباطنه لم يوصل به إلى الكمال بحسب ما نبه عليه الشيخ أبو علي في كتاب الشفاء.

في هذا النص لا يوجد نقد لابن سينا، وإنما تأكيد على تبني منهج ابن سينا، وتأكيد على الأسرار المودعة في كتاب الشفاء.

رابعاً: نقد فلسفة الغزالي:

1- أشار ابن طفيل إلى التناقضات التي وقع فيها الغزالي بقوله: "فهو يربط في موضع ويحل في آخر، ويكفر في أشياء ثم ينتحلها".
2- أشار إلى أن الغزالي كفر الفلاسفة في كتابه تهافت بإنكارهم لحشر الأجساد، وإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة، لكن الغزالي بحسب ابن طفيل يتراجع عن هذا ويقول في أول كتابه الميزان "إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع" ثم يقول في كتابه المنقذ من الضلال "إن اعتقاده كاعتقاد الصوفية وأن أمره وقف عند ذلك بعد طول البحث" وأشار أن أكثر كتبه لا تخلو من هذه الآراء المتناقضة.
3- يرى ابن طفيل أن الغزالي في آخر كتابه ميزان العمل قد اعتذر عن هذا الفعل حيث وصف أن الآراء على ثلاثة أقسام:
1- رأي يشارك فيه الجمهور على ما هم عليه.
2- ورأي يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد.
3- ورأي يكون بين الإنسان وبين نفسه لا يطلع عليه إلا من هو شريكه في اعتقاده.

هذا الرأي الأخير هو ما استبقاه الغزالي لنفسه فقال:" ولو لم يكن في هذه إلا ما يشكك في اعتقادك بالموروث لكفى بذلك نفعاً. فإن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى". ثم تمثل بهذا البيت:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به.....في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وأشار ابن طفيل أن في كلام الغزالي رمز وإشارة لا ينتفع به إلا من وقف عليها ببصيرة نفسه أولاً، ثم سمعها منه ثانياً، أو من كان فائق الفطرة يكتفي بأيسر إشارة.

4- قال ابن طفيل أن الكتب التي يخاطب الغزالي بها نفسه أي (الكتب المضنونة) لم يجدها. والكتب الواصلة ليست هي الكتب المضنونة. حتى أن الكتب التي زعم الناس أنها الكتب المضنونة من مثل كتاب النفخ والتسوية وكتاب المعارف العقلية وغيرها وإن كان فيها إشارة لكنها لا تتضمن عظيم زيادة عن الكتب الموجودة.
5- أشار ابن طفيل أن البعض توهم من كلام الغزالي في آخر كتاب مشكاة الأنوار أمرا عظيما وهو أنه بعد أن ذكر أصناف المحجوبين عن الأنوار، ثم انتقاله إلى ذكر الواصلين:

إنهم وقفوا على أن هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافي الوحدانية المحضة. وهذا القول لازمه أن يعتقد أن الأول الحق سبحانه في ذاته كثرة ما تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا" إلا أن ابن **طفيل** لا يشك بأن الغزالي ممن سعد السعادة القصوى ووصل تلك

المواصل الشريفة، ويؤكد أن كتبه المضنونة لم تصل. إلا أن ابن طفيل يشير إلى مضمونها وهو علم المكاشفة.

الحق الذي انتهى إليه ابن طفيل:

انتهى ابن طفيل إلى الحق الذي هو مبلغه من العلم بتتبع كلام الغزالي وكلام ابن سينا وصرف بعضهما إلى بعض بالإضافة إلى بعض الآراء التي لهج بها قوم من منتحلي الفلسفة..فاستقام لنا الحق بطريق البحث والنظر ثم وجدنا منه الذوق اليسير بالمشاهدة.

كلام ابن طفيل للسائل- أيها السائل:

أنت أول من أتحفناه بما عندنا وأطلعناه على ما لينا لصحيح ولائك وزكاء صفاتك.

لن نلقي إليك ما انتهينا إليه حتى نحكم مباديها معك. لعدم الفائدة.

لا نرضى لك بهذه المنزلة. وهي أخذ العلم تقليداً مجملاً من دون تفصيل، ومن دون تصوره في النفس. لأنها غير كفيلة بالنجاة، فضلاً عن الفوز بأعلى الدرجات.

نريد أن نسلك بك كما سلكنا، ونسبح بك في البحر الذي عبرناه أولا. فتشاهد ما شاهدناه وتتحقق ببصيرة نفسك ما تحققناه، وتستغني عن ربط معرفتك بما عرفناه.

ما يتطلبه الوصول:

مقدار من الزمان غير يسر- فراغ من الشواغل- إقبال بالهمة كلها على هذا الفن- صدق العزم وصحة النية لهذا المطلب...فستحمد عند الصباح مسراك.... وتكون قد أرضيت ربك وأرضاك...

مسؤولية ابن طفيل تجاه السائل:

أرجو أن أصل من السلوك بك على أقصد الطريق، وآمنها من الغوائل والآفات.

ثم يبدأ ابن طفيل على سبيل الحث والتشويق بوصف حي ابن يقظان و سلامان وأبسال الذين سماهم الشيخ أبو علي. ففي"قصصهم عبرة لأولي الألباب" و"إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد".

"ما أعرفه يراه" ابن سينا- "ما أراه يعرفه" الصوفي أبي سعيد بن أبي الخير